الطبقة الوسطى في العراق بين الانطلاق المبكر والإخفاق المتأخر

أ.د.
عبد السلام ابراهيم بغدادي(*)
dr.salam54@yahoo.com

مقدمة :

لم تكن كتابة هذه الدراسة بالسهلة أبداً ، ذلك أن أي دراسة تأصيلية – وهذا ما تزعم هذه الدراسة إنها قامت به – تواجه سيلاً من التحدي والصعوبة ، ليس بسبب ندرة المصادر أو قلة المعلومات. حسب وإنما لاختلاف هذه المصادر في توجهاتها ، وانحياز هذه المعلومات لحساب فريق على آخر؛ فضلاً عن اختلاف كل مرحلة في أحكامها وتقييماتها عن المرحلة التي سبقتها وهكذا ، لاسيما إذا تعلق الأمر بالجانب السياسي أو الأيديولوجي ، وهو أمر حاكم في تقييم أو تقويم أي مرحلة سابقة.

ومع ذلك تأتي هذه الدراسة كمرحلة أولى في سياق دراسات سوف تتوالى – إن شاء الله –عن الانطلاقة الأولى للطبقة البرجوازية العراقية ، وهي انطلاقة كانت في حينها واعدة برغم من أنها كانت بسيطة ومتواضعة، لكنها ظلت متواصلة ومتفائلة برغم كل التحديات والمعرقلات.

وجاءت الدراسة لتثبت أن العراق لم يفتقد أبداً نشوءاً أصيلاً لطبقة برجوازية رائدة، لكن التحديات التي واجهتها حالت دون إكمال مسيرتها بشكل طبيعي وسلس، مثلما حصل لنظيراتها في الدول المتقدمة التي سبقتها في البدء ومن ثم في التطور والارتقاء. وسعت الدراسة لتحقيق غايتها على الالتزام بمنهج تاريخي تحليلي سوسيولوجي

(*) مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية، جامعة بغداد.

مقارن ، يعتمد التدرج التاريخي في عرض مسيرة التواصل البرجوازي باسلوب تحليلي، ومن منظور سوسيولوجي / طبقي يحلل نمو وتبلور الطبقة الوسطى في العراق باسلوب مقارن بين مرحلة وأخرى.

وعسى أن تكون الدراسة قد قدمت لبنة صغيرة على طريق فهم هذه الطبقة وتطورها، ومن ثم سر اخفاقاتها المتأخرة ، مما جعل العراق يراوح في مكانه ضمن دول ما يسمى بالعالم الثالث وعدم ارتقائه الى مصاف العالم الأول أو حتى الثاني ، على الرغم من كل ما يمتلك من ثروات وعقول مبدعة.

1–إرهاصات ظهور الطبقة الوسطى في العراق

لا يمكن تلمس المثابة الأولى التي انطلقت منها الطبقة الوسطى في العراق، بشرائحها الصناعية والتجارية والمتعلمة ، ليس بسبب اختلاف آراء المؤرخين والموثقين فحسب ، وإنما لاختلاف تقديراتهم حول ما يعد له علاقة بالطبقة الوسطى أو ما يسجل على أعمال الولاة والحكام المستنيرين الذي شكلوا الرافعات الأولى لانطلاق هذه الطبقة المستنيرة والفاعلة في المجتمع العراقي الحديث.

فمثلاً يعدُّ البعض عهد الوالي مدحت باشا ١٨٦٩– ١٨٧٢ بداية الانطلاق للشرائح الأولى من الطبقة البرجوازية ، في حين عدَّ البعض الآخر عهد الوالي داود باشا ١٨١٤ – ١٨٣١ شرارة الانطلاقة الأولى للصناعيين في العراق بما أدخله من مصانع ونظم حديثة ، سنأتي على ذكرها لاحقاً.

بينما تذكر صفحات التاريخ أن عهد الانطلاق كان أبكر من ذلك*. إذ تشير إحدى الدراسات إلى أن مدينة البصرة شهدت نشوء طبقة متميزة من تجار الجملة

***لا داع للتأكيد على أن دراستنا تبدأ من التاريخ المعاصر والحديث للعراق ، لكن هذا لا يمنع من الإشارة إلى ان هناك واقعة لها دلالتها من التاريخ الوسيط ، وهي واقعة ذات أهمية وهي أن سلمان الفارسي( ) كان عاملاً على الكوفة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ( ) ، وأراد أن يسير في العراق سيرة تتفق واتجاهه الفكري (اليساري) ، فكوَّن نقابات للصناع ... وهذا يدل على وجود هذه الطبقة وانتشارها وبشرائح متنوعة استدعت من الصحابي الجليل (سلمان) أن يشكل نقابات تسهر على مصالحها.**

منـذ وقـت مبكـر يعـود الى منتصـف القـرن الثـامن عشـر المـيلادي؛ وكـان جلهـم مـن اليهـود والأرمـن ، الـذين امتـدت تجـارتهم عـبر الخلـيج العـربي إلى الهنـد*.إذ كانـت البصـرة تشـهد نمـواً بـل نهوضـاً واضـحاً ، علـى الـرغم مـن الوجـود العثمـاني والبريطـاني في المنطقـة ، وكـذلك علـى الـرغم مـن المعـرقلات المتمثلـة بالأوبئـة والحـروب والقرصـنة البحريـة وغـارات القبائـل والسـلب والنهب على الطرق البرية والممرات البحرية.[1]

وكــان هــؤلاء التجــار قــد شــكلوا نــواة أساســية لظهــور الطبقــة الوســطى ونموهــا فيمــا بعــد، لاسـيما وأنهـم مارسـوا تجـارة الاسـتيراد والتصـدير منـذ وقـت مبكـر، وهـي تجـارة كانــت تمتــد لمســافات بعيــدة في ظــل ســيطرة عثمانيــة ووجــود أوروبي متنــامي ، أدى إلى التحام مبكر لاقتصاد البصرة بالاقتصاد الرأسمالي العالمي. [2]

مـع ذلـك، نقـول أن عهـد الـوالي المملـوكي داود باشـا١٨١٤-١٨٣١...شـهد ظهــور البــواكير الأولى للطبقــة البرجوازيــة في العــراق. وداود باشــا هــو الــوالي الأخــير مــن

ينظر: أحمد عباس صالح ، اليمين واليسار في الإسلام، (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية ، كانون الثاني ، ١٩٧٣) ، ص٦٢.

*ظل اليهود يشكلون حتى نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات من القرن العشرين أبرز النخب التجارية والمصرفية في العراق وأدت هجرتهم بعد العام ١٩٤٨ إلى خلق فجوة كبيرة في الميدان التجاري والمصرفي استغرقت وقتاً لردمها من قبل الآخرين. وكان اليهود يتمتعون بالأغلبية بعد الحرب العالمية الأولى ، وقدرت أعدادهم في حينها بنحو ٥٣ ألفاً من إجمالي سكان بغداد الذي كان في حينها بحدود ١٥٠ ألفاً. وكانوا يشكلون العمود الفقري لطبقة ملاك الأرض والتجار والأعمال الحرة ، ويؤلفون نسبة عالية من الإدارة الحكومية. بيد ان أعدادهم تراجعت بعد عام ١٩٤٨ ، ولم يبق منهم إلا أفراداً معدودين بداية السبعينيات ؛ ينظر: اليزابيث بيكارد، (العواقب العراقية الوخيمة على الشرق الأوسط) في: اسحاق نقاش وآخرون ، المجتمع العراقي حفريات سوسيولوجية في الإثنيات والطوائف والطبقات ، (بغداد ؛ بيروت: معهد الدراسات الاستراتيجية، ٢٠٠٦) ص ص٢٩٧ ، ٣٠٧. وكذلك :

حنا بطاطو ، (الدور السياسي للشيعة وعملية الاندماج) في: اسحاق نقاش وآخرون، المجتمع العراقي حفريات سوسيولوجية ... ص١٩٨ ، ١٩٩ ؛ أحمد صباح الدرة ، التخطيط الصناعي في العراق ١٩٢١-١٩٨٠ ، القطاع الخاص ، (بغداد ، مكتبة المدينة ، ١٩٨٢) ، ص٤٤ ؛ صحيفة الشرق الأوسط ، لندن ، السنة ٣٤ ، العدد ١٢٢٧٨ في ٢٠١٢/٧/١٠ ، ص٣.

([1])بتصرف عن: د. ثابت عبدالجبار عبدالله ، الاقتصاد السياسي لتجارة البصرة في القرن الثامن عشر، ترجمة: عزيز سباهي. عرض صحيفة المدى/ بغداد، السنة ١٢، العدد ٣٢١٦ في ٢٠١٤/١١/١٦، ص١١.

([2])المصدر نفسه ، ص١١.

سـلالة المماليـك (الكولـه منـد) الـذين حكمـوا بغـداد للحقبـة مـن عـام ١٧٤٩ إلى عـام ١٨٣١ ميلادية (١١٦٢-١٢٤٧هجرية).

وكـان هـذا الـوالي قويـاً وحـداثوياً ، لكـن الظـروف لم تكـن موائمـة .. ويقـول عنـه أحـد الدارسـين ، وهـو مـن المماليـك أيضـاً ، أن داود باشـا الـذي دام حكمـه سـبعة عشـر عامـاً ، أحسـن التـدبير، وأصـلح فاسـد الأمـور، وقـام بتنفيـذ مشـاريع عـدَّة ، منهـا حفـر الـترع والأنهـار، و(اسـتدعى صـناعاً مـن أوربـة وأحـدث مصـانع الجـوخ والبـز والبواريـد واجتهـد في ارتقـاء المصـانع الوطنيـة ، وألـف جيشـاً نظاميـاً عـدده عشـرة آلاف مـن مدفعيـة ورجالـة الـذين درّبهـم ... مسـيو دووه مـن ملازمـي نـابليون الأول ... وهـذا يعـني أن داود باشـا المملـوكي كـان أول مـن أسـس المصـانع الحديثـة بالاسـتعانة بـالخبراء الأوربيـين في بغـداد، قبـل أن يؤسسها مدحت باشا في عام ١٨٧٠ ، أي قبله بنصف قرن). [1]

ويـرى الـبعض ممـن تنـاول تـاريخ العـراق الحـديث وإرهاصـات الطبقـة الوسـطى في العـراق ، إن البحـوث التاريخيـة الـتي تناولـت تـاريخ العـراق الحـديث قـد أجحفـت حـق الـوالي الشـهير داود باشـا والي بغـداد ، الـذي ظهـر علـى المسـرح السياسـي في حقبـة مـن أكثـر الحقـب إثـارة في تـاريخ الدولـة العثمانيـة والعـراق. إذ عنـت بتـاريخ الـولاة والمصـلحين وحيـاتهم وأدوارهـم، ولم تعطـه حقـه ،أو المكانـة اللائقـة الـتي تنسـجم وشخصـيته وحنكتـه ومكانتـه ، وكـادت حـتى الكتـب الـتي احتـوت وأرخـت لحركـات الإصـلاح في التـاريخ الحـديث أن تهملـه وتجـنح الى الإشـارة لـه والتعريـف بـه. فقـد تركـزت الأضـواء علـى الـوالي مـدحت باشـا [الـذي سـيرد ذكـره لاحقـاً] وعدَّتـه وراء الكثـير مـن الإنجـازات العلميـة والثقافيـة والتطـورات السياسـية والاجتماعيـة وحـتى العسـكرية.. وكـان القـارئ البسـيط لا يلمـح إلا لمامـاً مـن إشـارات للـوالي داود باشـا ، بيـد أن أهـل التـاريخ الـذين ينقبـون في بطـون الكتـب يجـدون ويكتشـفون أن لهـذا الـوالي دوراً كبـيراً في حيـاة العـراقيين ، وهـو المملـوك الـذي انتـزع فرصـته بعلميتـه وثقافتـه ومهاراتـه السياسـية واسـلوبه المتفـرد الـذي عكـس عصـاميةنادرة. فقـد قطـع

---

(1) **سليمان فائق بك ، تاريخ المماليك (الكوله مند) ، ترجمة: محمد نجيب أرمنازي (عن التركية) ، مراجعة وتقديم : دكتور طالب البغدادي ، (بغداد: دار ضفاف للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠١٢) ، ص٦٢.**

شـوطاً طـويلاً في اثبـات جدارتـه وترسـيخ مكانتـه في المجتمـع العراقـي ، وليقطـف في النهايـة ثمـار جهـده ودأبـه لتحقيـق أحلامـه والتعـويض عـن حالـة الحرمـان الـتي عـانى منهـا منـذ أن خطفـه المتـاجرون بـالرق والعبيـد ، وهـو الطفـل المـدلل الى أمـه .. ليتـولى – بعـد حـين – ولايـة بغـداد الـتي تشـرف علـى ولايـات العـراق الأخـرى وهـي : البصـرة والموصـل وشـهرزور ومـاردين وهـو في الخمسـين مـن عمـره ليبـدأ مرحلـة أخـرى نحـو الـبروز والتـألق والتطلـع إلى حكـم أكـبر وهـو الاستقلال في العـراق عـن الدولـة العثمانيـة ، علـى غـرار محمـد علـي باشـا ١٨٠٥- ١٨٤٩ في مصر. [1]*

2-الومضات الأولية على طريق التكوين

وقبـل أن ننتقـل إلى محطـة الـوالي الإصـلاحي الأكثـر شـهرة ونعـني بـه (مـدحت باشـا / ١٨٦٩- ١٨٧٢) ، نشـير إلى بعـض الوقفـات الـتي سـجلت ومضـات مضـيئة علـى طريق تهيئة الأجواء لظهور بواكير طبقة وسطى فاعلة في المجتمع العراقي.

ومــن هــذه الومضــات ، مــا أشــارت إليــه بعــض المصــادر إلى أن وجــود أول مؤسســة بلديــة في بغــداد (أمانــة بغــداد) ، إنمــا يرجــع إلى مرحلــة مبكــرة تعــود الى العــام ١٨٤٠. [2] في حـين ذكـرت مصـادر أخـرى إن انشـاء أول بلديـة في بغـداد ، إنمـا يعـود إلى العـام ١٨٦٨ — أي قبـل توليـة مـدحت باشـا علـى بغـداد بعـام واحـد — وأن أول رئـيس لهـا ، هو إبراهيم أفندي الدفتري. [3]

---

(1)داود باشا وإصلاحاته في العراق (تقرير) المدى ، السنة الحادية عشرة ، العدد ٣٠٤٥ ، الإثنين ٢٠١٤/٣/٣١ ، ملحق (ذاكرة عراقية) ، ص١٥.

***لقد تناول بعض المؤرخين حياة الوالي داود باشا في مؤلفات مستقلة ؛ نذكر منها: مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود– لعثمان بن سند البصري .. وحققه المؤرخ الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف ؛ وجيمس ريموند ، رحلتي إلى بغداد في عهد الوالي داود ؛ وتاريخ العراق من داود باشا إلى مدحت باشا ؛ وداود باشا ونهاية حكم المماليك في العراق ليوسف عز الدين. فيما تناولته في فصول خاصة جمهرة من الكتب الأخرى. المصدر نفسه ، ص١٥.**

(2)المدى ، بغداد ، السنة ١٢ ، العدد ٣١٥٢ في ٢٠١٤/٨/٢١ ، ص٦.

(3)إسراء عبدالمنعم السعدي ، (بلدية بغداد قبل تأسيس أمانة العاصمة) ، المدى ، السنة ١٢ ، العدد ٣٢١٧ في ٢٠١٤/١١/١٧ ، ملحق ذاكرة عراقية ، ص١٠.

وتشـير الوقـائع إلى أن سـنة ١٨٥٩ شـهدت إدخـال الإبحـار البخـاري النهـري (في دجلـة) ، وأن العـام ١٨٦١ شـهد ظهـور الـبرق الكهربـائي ، في نقلـة نوعيـة تسـجل بـدايات ارتبـاط العـراق بالعـالم الرأسمـالي وانتقالـه التـدريجي مـن اقتصـاد الكفـاف الى اقتصـاد السـوق وانتشـار النقـود ودخـول البضـائع والسـلع (الإنكليزيـة) .. ومما عـزز مـن ذلـك– وكمـا سنشـير الى ذلـك لاحقـاً – افتتـاح المـدارس الحكوميـة ومـن ثم الأهليـة وظهـور وانتشـار الصحافة ابتداءً من العام ١٨٦٩. [1]

إن ذلـك كلـه قـد أدى الى انغمـاس الـولاءات المحليـة في المـدن ، والعشـائرية في الريـف ، في عمليـة تآكـل ، وإلى ولادة قـوة اجتماعيـة جديـدة ، وإن كانـت مازالـت جنينيـة ، وهـي الانتلجنسـيا الجديـدة (الشـريحة المتعلمـة والمثقفـة) ، وجـذور الشـرائح البرجوازيـة الأخـرى ، وهـو مـا عـنى عملياً ولادة الـولاء الجديـد للـوطن او الأمـة ، الـتي لم تُـزح الـولاءات القديمة عن مواقعها ، بل تعايشت معها ، وتشربت بعض عناصرها النفسية.[2]

والظـاهر أن وقـائع كثـيرة أسـهمت في نشـر الشـعور الـوطني او الشـعور بالانتمـاء الى الأمـة ، ومـن أبرزهـا تزايـد عـدد الشـباب الملتحقـين بمـدارس التعلـيم العـالي التركيـة ، وزيـادة التعـرض لطـرق التفكـير الأوروبي ، وانتشـار الكتـب والصـحف ، وتسـارع ايقـاع سياسـة التتريـك ، وظهـور النـوادي والجمعيـات العربيـة ، والاهتمـام بالتـاريخ العـربي ، واستنهاض اللغـة المشـتركة؛ ولكـن مـا سـاهم أكثـر مـن أي شـيء آخـر في تقـدم هـذا الشـعور الجديـد ، كـان الغـزو الإنكليـزي (البريطـاني) ١٩١٤– ١٩١٨ ، أو بـالأحرى المقاومـة الـتي أثارهـا هـذا الغـزو ، ووصـلت نقطـة الـذروة في ثـورة العشـرين[3] ، (الثـورة الـتي قـام بهـا الشـعب العراقي ضد الاحتلال البريطاني ، وهي ثورة عمَّت جميع الأراضي العراقية).

3–التحول المفصلي«دمغة مدحت باشا»

---

(1)ماهر الشريف، (حنا بطاطو: العراق ، الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية ، عودة الى أبرز القضايا والتساؤلات) في : اسحاق نقاش وآخرون ، المجتمع العراقي حفريات سوسيولوجية ، ... ص٥٧.

(2)المصدر نفسه ، ص٥٨.

(3) المصدر نفسه ، ص٥٨.

والتزاماً بالمنهج أو التدرج التاريخي ، فإنه لزاماً علينا أن نعود إلى الحقبة التي تلت إنشاء أمانة بغداد عام ١٨٦٨ ، فنقول أن العام التالي ، شهد تطوراً ملموساً ، بقدوم الوالي الإصلاحي المعروف مدحت باشا ١٨٦٩- ١٨٧٢ ، الذي شهد عهده قفزة نوعية على طريق ظهور وتبلور طبقة برجوازية صغيرة ، لكنها رائدة ونشيطة ، من خلال الاجراءات والاصلاحات التي أدخلها ، والمؤسسات التي أوعز بإنشائها ،والتي تركت دمغتها – بعد حين –في تاريخ نشوء هذه الطبقة وتطورها اللاحق في العراق.

وما يمكن ذكره هنا ، أن مدحت باشا أدخل التنظيمات الإدارية ، فوضع مجالس الولاة ، ومجالس البلديات والمجالس الخاصة بالمتصرفيات. فشكل أول مجلس بلدي عام ١٨٦٩ ، ويكون اختيار أعضائه عن طريق الانتخابات ، وتعهد إدارة البلدية الى رئيس البلدية ومجلسها الذي يتكون على الأغلب من إحدى العوائل الأساسية (المعروفة آنذاك) في المدينة أو موظفاً حكومياً. [1]

وعملت الإدارة الجديدة ، على تشجيع شيوخ ورؤساء المناطق القبلية على الاستقرار والتوطن، في محاولة لتقليص حالة البداوة والدخول في تكوين بنية اقتصادية واجتماعية جديدة .. لاسيما بعد أن ضمنت ولاء هذه العشائر.— على الأقل في حينها– وبعد ذلك أدخل نظام الطابو (ابتداءً من العام ١٨٦٩) في ملكية الأراضي التي أثرت على علاقة الملكية في داخل العشيرة نفسها. كما ادت التحسينات المهمة في وسائل الاتصال ، لاسيما الاتصال النهري ، دوراً غير قليل في تسارع إيقاع تغيير المجتمع العراقي ، وأدت التغيرات التي حدثت في البنية الاجتماعية — الاقتصادية للمدن إلى النمو السكاني (الديموغرافي) أكثر من غيرها إلى حافز لجذب أعداد متزايدة من الناس من القرى والأرياف إلى المدن[2] ، لاسيما الموصل والبصرة وبغداد.

---

(1) إسراء السعدي ، (بلدية بغداد ...) ، ص١٠.

(2)فريدة جاسم المندلاوي ، النظرية العالمية في مجتمع متغير ، بحث في سوسيولوجيا الجريمة والسلوك الاجرامي ، دراسات اجتماعية ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، ٢٠١٠ ، ص ص١٢-١٣.

وهـذا يعـني أن التركيـب الاجتمـاعي قـد شـهد تحـولاً جديـداً ، وهـو الانتقـال مـن الريـف إلى المدينـة وترافـق ذلـك مـع تـوطين البـدو. وهـذه التحـولات كـان لهـا انعكاسـات اقتصـادية – اجتماعيـة ، تتمثـل في القابليـة الاسـتيعابية للمـدن للزيـادة السـكانية الناتجـة عـن عمليـات الهجـرة والانتقـال ، وبالتـالي زيـادة نسـبة وأعـداد سـكان المـدن[1] ؛ لاسـيما المـدن الـثلاث المشـار إليهـا آنفـاً وهـي البصـرة وبغـداد والموصـل. الأمـر الـذي وفَّـر قاعـدة اجتماعيـة لنمـو وتبلـور طبقـة بورجوازيـة وطنيـة صـغيرة أو جنينيـة ، مـع ظهـور طبقـة عماليـةتحوي نسـبة من العمال الصناعيين والحرفيين ، الذين شكلوا نواة لحركة صناعية واعدة.

إن تـدفق السـكان مـن الريـف والباديـة ، أدى إلى ازديـاد سـكان المـدن الـثلاث الرئيسـة زيـادة ملحوظـة ، بـل كبـيرة ومتسـارعة. فقـد ازداد سـكان البصـرة مـن عشـرة آلاف نسـمة في العقـد الرابـع مـن القـرن التاسـع عشـر إلى خمسـة عشـر ألـف في أواسـط ذلـك القـرن، ومـن ثم إلى سـتين ألفـاً في بدايـة القـرن العشـرين. كـذلك ارتفـع سـكان الموصـل مـن ثلاثـة وسـتين ألفـاً عـام ١٨٨٩ إلى حـوالي ثمـانين ألفـاً عـام ١٨٧٨، ومـن ثم إلى مـا لا يقـل عـن مائـة وخمسـة وأربعـين ألفـاً عـام ١٩٠٠. مـع العلـم أن المجمـوع الكلـي لسـكان ولايـات بغـداد والموصـل والبصـرة بلـغ عـام ١٩٠٥ مليـون وثلاثمائـة وخمسـة وتسـعون ألفـاً نسـمة. ومـن الطريـف أن نـذكر أن ازديـاد عـدد سـكان بغـداد قـد دفـع مجلـة (لغـة العـرب) للشـكوى مـن صـعوبات المسـير داخـل أسـواقها – علـى الـرغم مـن عـدم وجـود سـيارات آنـذاك – وذلك بسبب الازدحام الشديد. [2]

ومما يحسـب للـوالي المجـدد مـدحت باشـا – لـيس في بـاب إصـلاحاته العامـة والرائـدة فحسـب، وإنمـا في بـاب افتتـاح الطريـق أمـام نشـوء شـريحة متعلمـة مثقفـة/ انتلجنسـيا، شـكلت فيمـا بعـد نـواة فاعلـة لقيـام طبقـة برجوازيـة واعـدة – قيامـه بإنشـاء

(1) حسن عودة أبو الهيل ، أسس قيام الطبقة الوسطى في العراق ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة بغداد ، كلية العلوم السياسية ، قسم الفكر السياسي ، ٢٠١٤ ، ص٢٥.
(2) بتصرف عن المصدر السابق ، ص٢٥.

المدرسـة (الثانويـة المركزيـة)*، إلا أن البنـاء لم يكتمـل خـلال ولايتـه فأُكمِـل البنـاء في عهـد الوالي عبدالرحمن باشا، في ولايته الثانية ١٨٧٩-١٨٨١.

وتعـود جـذور البنايـة الى العصـر العباسـي المتـأخر حيـث كانـت الأرض الـتي شـيدت عليهـا المدرسـة ربـاط يُعـرف بربـاط (سـعادة)؛ وقـد تهـدَّم بقـدم السـنين.(١) والبنايـة تقـع بجانـب الرصـافة مـن بغـداد ، علـى مقربـة مـن ضـفاف نهـر دجلـة ، وشـارع المتنـبي وبنايـة الحكومـة السـابقة في العهـد الملكـي، قريبـاً مـن سـاحة الميـدان والبـاب المعظـم والمكتبـة الوطنية.

ولا تـزال هـذه (الثانويـة) ، القابعـة في قلـب بغـداد ،مسـتمرة في تخـريج أفـواج الشباب العراقي حتى اليوم تحت اسم (الاعدادية المركزية).

ومـا يـدخل في سـجل مـدحت باشـا ، الـوالي ذو الـذكر الطيـب وأكثـر الـولاة العثمـانيين اصـلاحاً وعمرانـاً — نظـراً لتفتحـه الفكـري وثقافتـه الحديثـة المسـتنيرة — ودوره في تمهيـد الطريـق لظهـور وتبلـور شـريحة مـن الانتلجنسـيا والبرجوازيـة الصـناعية ، مبادرتـه الخالـدة في تأسـيس مطبعـة الـزوراء ، الـتي طبعـت فيهـا صـحيفة الـزوراء الـتي صـار تـاريخ اصـدارها

---

*مما يجدر ذكره، أن جمعية الآليانس (اليهودية–الفرنسية) أسست في بغداد سنة ١٨٦٤ مدرسة عصرية ابتدائية ومتوسطة للبنين. أخذت تدرس العلوم واللغات الأجنبية فضلاً عن اللغتين العربية والعبرية . وقد بلغ عدد طلابها سنة ١٨٩٩ (٢٥٤) طالباً وزاد عددهم سنة ١٩٤٩/١٩٥٠ إلى نحو (١٠٠٠) تلميذ. وكانت هذه المدرسة تطبق فضلاً عن المناهج الرسمية المقررة ، منهاجاً خاصاً بالفرنسية ، يتيح للطلاب الحصول على الشهادات الدراسية الفرنسية. ومما له علاقة هنا أن الجمعية الفرنسية أسست سنة ١٨٩٣ مدرسة للبنات، لعلها كانت أول مدرسة للبنات في العراق. وقد أنشأ لها المحسن البغدادي الأصل السرايلي خضوري سنة ١٩١١ بناية كبيرة على روح زوجته لورا خضوري ، افتتحها الوالي أحمد جمال بك بصورة رسمية ؛ كان عدد التلميذات سنة ١٨٩٩ (١٣١) ، فزاد في سنة ١٩٤٩/١٩٥٠ الى ما يقارب ال (١٤٠٠) ، منهم (١٨٠) من الذكور والإناث في روضة الأطفال. وألحقت بالمدرسة فيما بعد صفوف لتعليم الخياطة والتطريز، وقد فازت معروضات التطريز بالجائزة الذهبية للمعرض الصناعي الذي أقيم في بغداد سنة ١٩٣٢.

ينظر: يوسف رزق الله غنيمة ، نزهة المشتاقفي تاريخ يهود العراق. مع ملحق بقلم مير بصري (بتاريخ يهود العراق في القرن العشرين). (بيروت: الوراق للنشر؛ الفرات للنشر والتوزيع، ط٣، ٢٠٠٦)، ص ص٣٠٥-٣٠٦.

(١) بتصرف عن: زكي خنساء شمس الدين ، (الثانوية المركزية في عهدها الأول) ، المدى ، السنة العاشرة ، العدد ٢٨٧٥ في ٢٠١٣/٨/٢٦ ، الملحق ، ص٨.

عـام ١٨٦٩ عيـداً للصـحافة العراقيـة. [(١)]* فضـلاً عـن قيامـه بتأسـيس مدرسـة الصـنائع ، الـتي خصصـت في البـدء لقبـول (الصـبيان اليتـامى المسـلمين الـذين لا معيـل لهـم بهـدف تعليمهم مهـن حـرة في التجـارة والحـدادة والنسـيج ، وظلـت هـذه المدرسـة تـؤدي غرضـها الوطني لأبناء اليتامى إلى عام ١٩١٧ حيث احتل الإنكليز بغداد فألغيت). [(٢)]

لكـن دورهـا الرائـد لم يلغَ ، إذ اسـهمت في تخريج العديـد مـن الحـرفيين والمهنيـين الـذين قامـت علـى أكتـافهم وآخـرين ، بـواكير النهضـة الصـناعية الحديثـة في العـراق ، إذ عمل كثير منهم في المعامل والورش التي ظهرت فيما بعد هذه الحقبة المضيئة.

ومـن إنجازاتـه الأخـرى الـتي تركـت وقعـاً حسـناً علـى طريـق الصـناعة والصـناعيين في العراق ، قيامه بإنشاء مصهر للحديد ، والذي سمي في حينه (دميرخانة). [(٣)]

ونصـبه مضـخة لصـنع الـثلج ، قـرب مدرسـة الصـنائع الواقعـة في وسـط الرصـافة ببغداد. [(٤)]

وقيامـه بإنشـاء خـط سـكة حديـد بطـول ١٢٠ كيلـومتراً يـربط مدينـة الكاظميـة في الجزء الشمالي الغربي من كرخ بغداد. [(٥)]

---

(١)عزيز جاسم الحجية ، (بعض الأوائل البغدادية) ، المدى ، السنة ١٢ ، العدد ٣٢١٧ في ٢٠١٤/١١/١٧ ، ملحق ذاكرة عراقية ، ص٩.

*يذكر أن اول من أسس مطبعة في بغداد ، وكانت حجرية ، هو داود باشا – الذي سبق الحديث عنه– لكن الباحث لم يعثر على مصدر لتوثيق هذا الحدث الرائد. ومما هو جدير بالذكر، أن اليهود العراقيين أسسوا اول مطبعة لهم في بغداد سنة ١٨٨٤– أي بعد ١٥ سنة من تأسيس مطبعة الزوراء– وهي مطبعة بيخور التي أنشأها الحاخام شلومو بيخور ١٨٤٣–١٨٩٢. وأسس الحاخام عزرا روبين مطبعته سنة ١٩٠٤. غنيمة، ص٢٩٠.

(٢)الحجية ، المصدر نفسه ، ص٩.

(٣)وليدي الزيدي (مترجم) بغداد في مذكرات الرحالة الفرنسيين في القرن ١٧ و ٢٠ ، صحيفة المدى ، السنة ١٢ ، العدد ٣٢١٧ ، في ٢٠١٤/١١/١٧. ملحق: ذاكرة عراقية ، ص١١.

(٤)أمين المميز، (هكذا أتذكر بغداد)، صحيفة المدى، السنة ١٢، العدد ٣٢١٧، في ٢٠١٤/١١/١٧. ملحق: ذاكرة عراقية، ص٧.

(٥) الزيدي ، ص١١.

واتجه الوالي مدحت باشا عام ١٨٧١ نحو استثمار النفط الموجود في خانقين ومندلي [تقعان اليوم ضمن محافظة ديالى – شرقي بغداد]. إذ شهد ذلك العام أول اهتمام جدي بالنفط العراقي على يد ذلك الوالي الرائد .. إذ قام بجلب أدوات وخبراء وفنيين من ألمانيا بغية إتمام المشروع ؛ لكن قرار عزله عن الولاية في عام ١٨٧٢ حال دون إنجازه ، حتى أن الأدوات تلفت نتيجة الإهمال. وتلا ذلك محاولات قام بها الخبراء الفرنسيون في أواخر القرن التاسع عشر لتحسين الإنتاج وزيادته في مناطق القيارة وطوزخورماتو وبابا كركر في شمالي العراق.[١]

4–التواصل في ظروف غير ملائمة

خلال أيام الوالي (سري باشا) عام ١٨٨٩ ميلادية ، شيدت المدرسة الابتدائية (الحديثة) في منطقة الفضل – بجانب الرصافة في بغداد– كتمييز لها –كما يقول المؤرخ البغدادي عزيز الحجية – (على باقي المحلات لأهميتها المكانية على نفقة العلاّمة عبدالوهاب النائب ، وسميت (حميدية مكتبي) نسبة للسلطان عبدالحميد ، وكان اول مدير لها هو عبدالمحسن الطائي ، وحالياً هي مدرسة الفضل بطابقين ذات صفوف واسعة وصنَّفها مدرسة بنات) وقد تخرج منها الراحل الأديب عزيز الحجية عام ١٩٣٥، وهذا يعني أنها كانت مدرسة بنين.[٢]

إن قيام هذه المدرسة في قلب الرصافة من بغداد ، شكّل – في حينه– بؤرة إشعاع حضارية ، أسهمت في إنتاج الطلائع الأولى لشرائح الانتلجنسيا والبورجوازية العراقية الرائدة.

وعلى طريق تبلور وظهور شرائح مستنيرة من الطبقة البورجوازية العراقية الصغيرة الرائدة ؛ فإنه يمكن القول ، أنه خلال المدة من عام ١٨٧٢ إلى عام ١٩١٢ ،

(١)ينظر في ذلك : اسماعيل نوري الربيعي ، (الجذور التاريخية لامتيازات النفط العراقي) ، السياسة الدولية ، القاهرة ، مؤسسة الاهرام ، العدد ١٨٦ ، نيسان / أبريل ، ٢٠٠٧ ، ص١٥٠. وكذلك : بسام يوسف ، وإرك ديفيز ، تفسير الحكم الأوتوقراطي في العراق : النفط والصراعات من منظور تاريخي واجتماعي – سياسي. في : ابراهيم البدوي وسمير المقدس (محرران) ، تفسير العجز الديمقراطي في الوطن العربي ، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ، ٢٠١١) ، ص٣٧٢.

(٢)عزيز الحجية ، مصدر سابق ، من كتاب (بغداديات) – الجزء السابع ، ص٩.

كـان عـدد الطـلاب العـراقيين الدارسـين في إسـطنبول – عاصـمة الدولـة العثمانيـة / آنـذاك –ومعظمهـم مـن الدارسـين في الكليـة العسـكرية ، قـد وصـل إلى (١٤٠٠) طالـب ، وقـد تـأثر هـؤلاء خـلال وجـودهم هنـاك بالأفكـار الغربيـة (الليبراليـة والاشـتراكية علـى حـد سـواء). الأمـر الـذي أدى إلى نشـوء تيـار وطـني (عراقـي) متشـرب بالأفكـار الغربيـة الـتي حملـت في طياتها بـذور الثـورة والإصـلاح الـتي مـن المحتمـل جـداً أنها وجـدت أرضـاً خصـبة بيـنهم. إذ أتـى معظـم هـؤلاء الطلبـة مـن الفئـات الـدنيا مـن الطبقـة المتوسـطة ؛ وكـانوا يؤلفـون ، في الوقـت نفسـه ، مـا نسـبته ٩٣% مـن مجمـوع الطلبـة العـراقيين الـذين درسـوا في المـدارس العاليـة بإسـطنبول. ممـا كـان يعـني أنهـم كـانوا يمتلكـون تقريبـاً التجـانس الثقـافي والاجتمـاعي، ونسـبياً الـزخم العـددي ذي الأهميـة المعنويـة الدافعـة لهـم. وإن كـل ذلـك قـد يُفسـر لمـاذا أن أولى الـدعوات لتطبيـق الأفكـار الليبراليـة والاشـتراكية كـان أصـحابها ينتمـون إلى فئـة – الضـباط العـراقيين[1] .. الـذين كـانوا – يومـذاك – عمـاد الطبقـة البورجوازيـة العراقيـة الصغيرة ، وقوتها (السياسية) المؤثرة.

وإذا مـا توقفنـا عنـد إطلالـة القـرن العشـرين ، نلاحـظ بـدء قـدوم الشـركات الأجنبيـة إلى العـراق ؛ وذلـك يرجـع إلى أسـباب عـدة ، منهـا بدايـة إنـدماج الاقتصـاد العراقـي في دائـرة الاقتصـاد العـالمي ، وخروجـه مـن دائـرة اقتصـاد الكفـاف والمقايضـة الى الاقتصـاد النقـدي الحـديث ؛ وبـدء ظهـور المطـامح الأوربيـة في الـبلاد ، وبـروز شـريحة الكـومبرادور Comprador وهـي الشـريحة التجاريـة الـتي تتمتـع بامتيـازات الحصـول علـى تـوكيلات مـن الشـركات الأجنبيـة النافـذة ، لتحقيـق غرضـين ، أولهمـا : خدمـة مصـالح تلك الشركات، وثانيهما : تحقيق المنافع الخاصة لهؤلاء الوكلاء (التجار) المحليين.

وعليـه نلاحـظ قيـام شـركة لـنج (البريطانيـة) للملاحـة النهريـة ، بتشـييد مقـر لهـا في بغـداد عـام ١٩٠٦ عنـد شـارع المستنصـر (شـارع النهـر)[2] ، المحـاذي لنهـر دجلـة مـن

---

(1) محمد جبار ابراهيم ، (الصراع بين التجديد والقديم أبان الأيام الأخيرة للعثمانيين) ، المدى ، السنة ١٢ ، العدد ٣٢٢٩ في ٢٠١٤/١٢/١ ، ملحق: ذاكرة عراقية ، ص٥.

(2) المدى ، السنة ١٢ ، العدد ٣٢١٧ في ٢٠١٤/١١/١٧ ، ملحق: ذاكرة عراقية ، ص١٤.

الغرب وشارع الرشيد من الشرق. وهي الشركة التي كان لها دور في إرساء النفوذ البريطاني في العراق ، من جهة ، وتيسير النقل النهري بين بغداد والبصرة من جهة أخرى. مما سهل كثيراً من عمليات نقل الأشخاص والبضائع بين المدينتين اللتين تمثلان أهم المراكز المدنية في وسط (المركز) وجنوب (الميناء) العراق. مما دفع بإتجاه تعزيز النشاط الزراعي والصناعي ، وتفعيل دور الاقتصاد النقدي وبناء سوق عراقية حديثة.

ويبدو أنه كان لهذه الشركة ، واسمها الرسمي (إخوان لنج) نفوذ واسع في حينها بدلالة سعيها للحصول على امتيازات الإدارة الحميدية عام ١٩١١ ، مما أدى إلى اندلاع تظاهرات واحتجاجات نظمتها جماعة (عبدالقادر الخضيري ومحمود الشابندر) ومشاركة جعفر أبو التمن — وهم من الساسة والوجهاء المعروفين في حينها– لمعارضة بيع وامتيازات الإدارة الحميدية لتلك الشركة البريطانية النافذة. [1]

ومن المحطات النابضة بالحيوية والنشاط ، نشير إلى ما قام به الوجيه محمود الشابندر ، وهو إحدى الشخصيات البغدادية المعروفة — في حينه — والتي شاركت بتوظيف إمكانياتها التجارية لصالح بغداد ، وليقدم نفسه نموذجاً للطبقة البورجوازية (الصناعية) الرائدة .. إذ أنشأ في عام ١٩٠٧ مطبعة سميت بمطبعة الشابندر تيمناً بشهرته ومكانته الاجتماعية في الوسط البغدادي — آنذاك –.

وكان موقع مطبعة الشابندر في منتصف الجهة اليمنى لشارع المأمون (الرصافي) حالياً ، باتجاه جسر الشهداء.

وحين احتل الجيش البريطاني بغداد بقيادة الجنرال مود عام ١٩١٧ اتخذ من مطبعة الشابندر نواة لمطبعة جيش الاحتلال.*وكأن الانكليز قد أجروا مسحاً كاملاً

---

(1)علي حسن الفواز، (جعفر أبو التمن : الاصلاح السياسي والاقتصادي وعتبات التنوير) ، المدى ، السنة ١٢ ، العدد ٣٢٤٠ في ٢٠١٤/١٢/١٨ ، ص٦.

*لم يكتف البريطانيون ، الذين جاءوا تحت شعار براق ، هو محررين لا محتلين — وفقاً لخطاب الجنرال مود / قائد الحملة البريطانية على بغداد / في اهالي العاصمة ، عندما دخلها محتلاً سنة ١٩١٧ ؛ بغلق مدرسة الصنائع (الرائدة) ، بل اعتمدوا على مطبعة من إسهام البورجوازية العراقية ، ولم يجلبوا معهم حتى مطبعة معهم لتحديث البنية الصناعية العراقية الموجودة.

لمطابع بغداد فلم يجدوا افضل من مطبعة الشابندر التي تم استئجارها منه أول الأمر ثم اشتروها وعينوا لها مديراً إنكليزياً برتبة كابتن يعاونه اثنان من العسكر الإنكليز.

وقد وسعوا مساحتها بإضافة الدار المقابلة لها والعائدة للشابندر ، ثم أضافوا إليها المساحات المجاورة.

وكانت أبنية المطبعة تتكون من ٤٦ غرفة ودار سكن المدير وجميع لوازم السكن. وما يتعلق بالعمل كانت مطبعة الشابندر تتكون من ماكنتين كبيرتين للطبع ومطبعة صغيرة (صناعة بلجيكية)مع عدد من قاصات الحروف للترتيب اليدوي باللغات العربية والفارسية والتركية والإفرنجية وعدداً آخر من مكائن التصحيف. [١]

ثم قام الإنكليز بنقل ماكنة طبع كبيرة من مطبعة الولاية التي أسسها مدحت باشا عام ١٨٦٩ وأضافوا إليها أيضاً ماكنتي (الأنيوتايب) لسبك السطور مزودة بمخازن للحروف باللغة الإنكليزية فقط مع ماكنتي طبع حجم جريدة وأربع مكائن طبع متوسطة وصغيرة وكانت كلها تدار بمكائن «الانجن» وتشتغل بالنفط. لقد أطلق الإنكليز على المطبعة – بعد أن تملكوها – اسم (دائرة المشرف على الطباعة والقرطاسية. العراق). وطبعت في هذه المطبعة جميع الأوامر والبيانات والقوانين التي أصدرها قائد الحملة البريطانية في بلاد ما بين النهرين ، ومن هذه الأوامر « قانون العقوبات البغدادي » الذي صدر على شكل بيان سنة ١٩١٨. [٢]

ويبدو أن تأثير مطبعة الشابندر ظل راسخاً في تاريخ الثقافة العراقية وشريحة الانتلجنسيا المبدعة بدلالة انتشار المطابع الحديثة في هذا المكان ، الذي أصبح لصيقاً بشارع المتنبي – المتفرع عن شارع الرشيد – قريباً من تمثال الرصافي ، وهو منتدى العلم والثقافة والأدب في بغداد. وهو الشارع الذي يعج اليوم بالحركة الإبداعية ، ليس لأنه شارع الكتب والمطابع في بغداد ، وإنما لأنه أصبح ملتقى المبدعين والمثقفين، ليس في

([١])فاخر الداغري ، (مطبعة الشابندر ... ريادة ووهج) ، صحيفة الصباح ، بغداد ، العدد ٣٢٠٠ ، في ٢٠١٤/٩/٩ ، ص١٠.

([٢])المصدر نفسه ، ص١٠.

مقهى الشابندر حسب، وإنما في الملتقيات الأخرى (المدى ، المنتدى الثقافي البغدادي، مقهى الزهاوي، مقهى حسن عجمي) التي يحتضنها الشارع وملحقاته في الوقت الحاضر.

وسيراً على طريق الانفتاح وتوسيع منافذ الارتقاء أمام الطبقة الوسطى النامية – آنذاك – قدم الشيخ شكر الله والسيد علي مهدي البغدادي – وهما من وجهاء بغداد – طلباً الى الوالي العثماني وكالة المشير عبدالله باشا قائد الجيش السادس في بغداد، وتمت الموافقة على فتح مدرسة باسم (مكتب الترقي الجعفري العثماني) في ١٧ ذي القعدة سنة ١٣٢٦هـ الموافق ١٢/ كانون الأول ١٩٠٨ ، وتم تأجير الدار المجاورةلمسجد الحاج داود أبو التمن والتي كان يسكنها الطبيب (أرستو) المشهور في حينه. وقام بالتدريس فيها كل من السادة: علي البزركان ونافع السويدي وحيدر بك الحيدري وحسين فوزي أفندي ورؤوف أفندي بن عبدالله العطار ومحمد أفندي الشيخلي وحسن البرزنجي. وبعد الحرب العالمية الأولى تغيَّر اسمها إلى (المدرسة الجعفرية) وقد اكتسبت شهرة علمية ومعرفية واسعةوظل تقييمها على أنها صرح علمي قياساً بالمستوى المنخفض للتعليم آنذاك حيث أسهمت في تطوير المعرفة في علوم الرياضيات وضبط الحسابات التجارية. [1] كما ان المدرسة – وهذا اهم ما فيها – أنها كانت مصدراً مهماً من مصادر تعليم اللغات الأجنبية[2] ، التي ازدادت الحاجة إليها – في حينه – بحكم الاحتكاك بالأجانب وبحكم المراسلات التجارية والمصرفية.

ومن الجدير بالذكر ، أن مصادر أخرى ذكرت أن سلمان أبو التمن – وهو من وجهاء وتجار بغداد ، ووالد جعفر أبو التمن التاجر والسياسي المعروف– هو من أسس المدرسة الجعفرية. [3] ولا تختلف هذه المصادر في تثبيت اسم مؤسس المدرسة الجعفرية ، وإنما في توثيق سنة التأسيس ، إذ تذكر أنها سنة ١٩٢١. إذ تشير هذه

([1])عزيز جاسم الحجية ، (بعض الأوائل البغدادية) ... ص٩.

([2]) علي حسن الفواز ، (جعفر أبو التمن .. الاصلاح السياسي والاقتصادي وعتبات التنوير).. ص٦.

([3]) المصدر نفسه ، ص٦.

المصــادر إلى أنــه وبمبــادرة (مــن التــاجر البغــدادي المعــروف الحــاج ســلمان أبــو الــتمن ، تأسســت المدرســة الجعفريــة في بغــداد ، واتخــذت المدرســة مــن الــدار الــتي كــان يســكنها (ارستو) الطبيب المشهور مقراً لها ، وقام بعض التجار بالتبرع للمدرسة التي كانت غايتها الأساسية تدريس اللغات الأجنبية الأوربية ، لتكوين جيل شاب عراقي منفتح على العالم). ويضيف هذا المصدر، أن يوم الافتتاح شهد إقامة (حفل كبير يوم ١٩٢١/٧/٨ حضره الأمير فيصل [قبل أن يتوَّج ملكاً على العراق]، مع رهط من كبار الوجهاء والأعيان والأدباء والعلماء والشعراء ، منهم الشاعر المعروف جميل صدقي الزهاوي، الذي لم يكن له ما يهديه من مال، فأنشد:

لا خيل عندك تهديها ولا مال   فليسعد النطق إن لم تسعد الحال) [(١)]

وبغض النظر عن سنة تأسيس المدرسة الجعفرية، إن كانت سنة ١٩٠٨ أو سنة ١٩٢١ ، أو عن السادة الأفاضل الذين قاموا بتأسيسها (البغدادي أو أبو التمن) أو إن كانت المدرسة (الأولى) في عام ١٩٠٨ تختلف عن (الثانية) في عام ١٩٢١ ، أو أن كلاهما واحد ؛ فإن المتفق عليه ، أن هذه المدرسة كانت محطة مفصلية ، ليس في تاريخ التعليم العراقي حسب وإنما في تاريخ العراق ، لأنها اول مدرسة عراقية حديثة تعنى باللغات الأوربية والرياضيات وإدارة الأعمال ، وهذا ما كانت تحتاجه ، ليس السوق فقط ، وإنما الحياة بمجملها في العراق آنذاك .. إنها الحاجة إلى جيل علمي حديث يُرسي أسس قيام طبقة بورجوازية رائدة من الانتلجنسيا الحديثة تحمل أعباء التغيير والتجديد والتحديث في كل مجالات الحياة .. وتكون مدخلاً للحراك نحو كل ما هو أفضل وأنفع للمجتمع ، ذلك (أن التعليم عنصر أساسي في إحداث الحراك ، وكذلك في تراكم الثروة. مع ذلك هناك عامل آخر مهم هو اتخاذ القرارات الاقتصادية) [(٢)] ؛

---

(١)أحمد الخالدي ، (قصة تأسيس المدرسة الجعفرية) ، المدى ، السنة العاشرة ، العدد ٢٧٥٢ في ٢٠١٣/٣/١٨ ، ملحق : ذاكرة عراقية ، ص٢.

(٢) كاس سانستين ، (نجاح الآسيويين الكبير في أمريكا) ، الشرق الأوسط ، لندن ، السنة ٣٧، العدد ١٣٢٤٥ في ٢٠١٥/٣/٤ ، ص١٠.

وخير من يتخذ القرارات السليمة والهادفة هو الإنسان المستنير، المسلح بالعلم والمعرفة. ومن هنا تأتي أهمية هذه المدرسة كمحطة تنوير على درب خلق طبقة بورجوازية مستنيرة وفاعلة في ذلك التاريخ العراقي المبكر.

5-أعوام المشروطية ، والتحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية

وإذا ما عدنا – وفقاً للمنهج المتدرج المعتمد في هذه الدراسة – إلى العام الذي توقفنا عنده وهو العام ١٩٠٨ ، قبل أن يقودنا تأسيس المدرسة الجعفرية (الرائدة) إلى عامين مختلفين ، وهما العام ١٩٠٨ والعام ١٩٢١ ، فإننا نقول ، أن ذلك العام (١٩٠٨) هو عام مفصلي في تاريخ البورجوازية العراقية ، لأنه العام الذي شهد إعلان السلطان العثماني عبدالحميد الثاني ، الدستور، بضغط من حركة الاتحاد والترقي (الاتحاديين) ، وهو الاعلان الذي أنعش الحركة السياسية والصحافية في العراق ، إذ لم يكن في العراق كله آنذاك سوى جريدة الزوراء في بغداد وجريدتي البصرة والموصل في كل من تلك المدينتين. ولكن ما أن تم إعلان الدستور العثماني ، حتى بلغت الصحف في بغداد وحدها خلال سنتين خمساً وعشرين جريدة ومجلة ، ثم تضاعف هذا العدد ، حتى وصل إلى تسع وستين صحيفة ، وعشرين مجلة بين أسبوعية وشهرية ، وإذا ما وضعنا في الحسبان عدد سكان العراق آنذاك ، ونسبة المتعلمين الى الأميين ، تبين لنا كثرة عدد تلك الصحف والمجلات. [1]

وكان لهذه (الهبَّة) الصحفية أثرها الكبير في ارتفاع الوعي السياسي عند الجمهور، الأمر الذي انعكس ايجاباً على حركة الطبقة الوسطى التي لا يمكن أن تنمو وتزدهر إلا في وسط مدني متعلم ومثقف.

وشهد هذا العام المفصلي ١٩٠٨ وهو عام الدستور –كما قلنا– أو سمي بـ (المشروطية) أيضاً ، تأسيس كلية الحقوق في زمن ناظم باشا– المفتش العام للخطة

---

[1] ينظر في ذلك: أبو الهيل ، أسس قيام الطبقة الوسطى ... ص١٧. وقارن مع : سعيد الغانمي ، الأفندية ونشأة النقد الحديث في العراق ، مجلة عيون ، بيروت ، منشورات الجمل، العدد ٤ ، سنة ١٩٩٧ ، ص٢٣–٢٤.

العراقيـة ووكيـل والي بغـداد في حينـه- وكـان اسمهـا أولاً (مكتـب الحقـوق العثمـاني) وأول مدير لها هو موسى كاظم الباجه جي.

ومـا يثير الانتبـاه هنـا ، أن هـذه الكليـة الرائـدة ، الـتي تعـد أول كليـة في العـراق الحـديث ، شـهدت قبـول أول طالبـة جامعيـة عراقيـة ، هـي (صـبيحة الشـيخ أحمـد داود) سنة ١٩٣٦ ، وتخرجت منها كأول طالبة تحمل صفة الخريجة الأولى. [1]

وهـذه أول نقلـة على طريـق دخـول المـرأة عـالم الانتلجنسـيا العراقيـة ، وهـذا الأمـر يحسب بالطبع لصالح تعزيز وضع الشرائح البورجوازية الحديثة*.

وبعـدها ازداد العـدد تـدريجياً للطالبـات اللـواتي قـبلن في هـذه الكليـة الـتي تغـير اسمهـا إلى كليـة الحقـوق بعـد الاحـتلال البريطـاني لبغـداد عـام ١٩١٧. وكانـت دراسـة الطالبـة المـذكورة حـدثاً ثقافيـاً واجتماعيـاً كـبيرين كـان النـاس يتناقلونـه بـين مؤيـد ومسـتكثر علـى المـرأة أن تواصـل دراسـتها الجامعيـة ، ومسـتقبلها أن تعمـل كـ محاميـة [2]، جنبـاً إلى جنـب مـع الرجـل ، وهـو الأمـر الـذي شـكل دفعـاً قويـاً لصـالح التحـديث والتجديـد ورافـد حيوي فاعل للطبقة البورجوازية البازغة آنذاك.

وعلــى طريــق دعــم الخطــوات الوئيــدة للبورجوازيــة الوليــدة آنــذاك (١٩٠٩) ، دعـت (جمعيـة البصـرة الاصـلاحية) إلى فسـح المجـال أمـام الحركـة الاقتصـادية وحريـة التعلـيم ، وإن أدى ذلــك إلى تبــاين اجتمــاعي ، وهــذا مــا لم يكــن يرضــي أنصــار المســاواة ودعــاة (الاشــتراكية). وجمعيــة البصــرة الإصــلاحية ، هــي الجمعيــة الــتي كــان (ســليمان فيضــي/

(1) عزيز الحجية ، ص٩.

*وطالما أن الحديث هنا ، هو عن الرائدات المتعلمات (البرجوازيات) من النساء ، فإنه يحسن بناء ، أن نشير إلى أن أول طالبتين قبلتا في كلية الصيدلة ، هما جوزفين برجوني ورحيمة يوسف ، وقد تخرجتا عام ١٩٤٠، واعتبرت (برجوني) أول صيدلانية تفتح صيدلية تمارس فيها العمل الحر بنفسها. وتعد (جوزفين غزالة) أول مهندسة عراقية اذ تخرجت عام ١٩٥٠. أما (أمينة علي صائب الرحال) فهي أول سيدة تحصل على إجازة قيادة المركبات عام ١٩٣٦ حيث قادت سيارتها في شوارع بغداد، وكان الناس في حينها بين مغتبط ومبارك ، وبين فاغراً فاه استغراباً واستنكاراً (على حرمة تقود سيارة). عزيز الحجية ، عن كتاب بغداديات ، الجزء السابع، مصدر سابق ، ص٩.

(2)عزيز الحجية ، المصدر نفسه ، ص٩.

الشخصية العراقية المعروفة) معتمدها. وكانت أغلب أفكارها تتركز في اعتماد اللامركزية الإدارية (في ظل الدولة العثمانية)، والدفاع عن التراتب الطبقي بما يدعم قيام وازدهار الطبقة البورجوازية ، إذ كانت الجمعية تدعو إلى حماية التمايز الاجتماعي ! والعمل المشترك لأجل ذلك ، لتحويل اللامركزية الإدارية (في أواخر عهد الدولة العثمانية) إلى سلطة هرمية محلية : الوالي على رأسها والمجالس الإدارية قاعدتها ، أي أن التمايز الاجتماعي / السياسي كان هو الأساس الحقيقي لوجودها. فبعد أن حدد سليمان فيضي ماهية حرية ممارسة الفرد لحقوقه (حسب رأيه) ، وهي الحرية الشخصية والحرية المدنية والحرية السياسية التي نشرها في أحد أعداد جريدته (الإيقاظ) الصادر في شهر آب/أغسطس سنة ١٩٠٩ ، حدد مفهومه للمساواة ، بقوله « وهي أن يكون الغني والفقير، والكبير والصغير، والمسلم وغير المسلم في الحقوق الشخصية سواء لا فرق بينهما ، وفي سائر الأحوال بمقتضى التطبيق لأصول التربية والآداب والعرف العام ، ويلزم أن يعرف كل أحد مقامه».[١]

وواضح في الجملة الأخيرة دور الحرية التكييفي الذي يعتمد التراتبية الاجتماعية ، لاسيما وأنه جعل أصول التربية والآداب والعرف العام المعايير المحددة لطبيعة وطريقة تفعيل مبدا المساواة في المجتمع ، مُسقطاً دور القانون من حساباته. لكن هذا لم يمنع من وجود أكثر من نقطة طموحة في برنامجه ، أهمها دعوته « لأن يكون كل فرد حراً بتشكيل كل نوع من أنواع الشركات المتعلقة بالتجارة والصناعة والزراعة ، وليس لأحد حق المعارضة، ويكون مفوضاً على فتح مكتب باسم التدريس [مدرسة] خصوصياً كان أو عمومياً بشرط مطابقته للقانون. »[٢]

أي أنه دعا إلى تطبيق الحرية الاقتصادية وحرية التعليم ، والتي عكست رغبات البورجوازية العراقية من الكومبرادور والملاك وفئة الانتلجينسيا العراقية معاً. ولأن طروحاته حافظت على اعتدالها قدر تعلق الأمر بمصالح المراتب الاجتماعية العليا ،

---

(١)محمد جبار ابراهيم ، (الصراع بين التجديد والقديم في العراق أبان الأيام الأخيرة للعثمانيين)، ص٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٤ .

أصبحت أهمها جزءاً أساسياً من برنامج « جمعية البصرة الإصلاحية » الذي كان عبارة عن وثيقة مساومة وحل وسط لتحالف عناصره المتباينة.[1]

وخلال العام ١٩١١ حدث تطور دراماتيكي في واقع البورجوازية العراقية ، لاسيما التجارية منها، وذلك من خلال (غرفة تجارة بغداد) التي انتظم تأسيسها عملياً في ذلك العام. وكان للتاجر المعروف – والسياسي فيما بعد – جعفر أبو التمن دور متميز في تأسيس (الغرفة) ، إضافة إلى أدواره في دعم كثير من النشاطات الاقتصادية، فضلاً عن دفاعه عن حرية التجارة والعمل على إحداث نهضة اقتصادية من خلال دعم إنشاء المشاريع الوطنية مثل محلج القطن ، والزيوت النباتية.[2]

ومن الجدير بالذكر أن أغلبية المناصب في غرفة تجارة بغداد ذهبت في حينها / عند التأسيس لليهود الذين كانوا يهيمنون على الشؤون التجارية والصيرفية في بغداد.[3]

ويذكر أحد المصادر أن تأسيس (الغرفة) لم يكتمل إلا في عام ١٩٢٦ ، وأنه كان لرجل الأعمال العراقي المعروف آنذاك نوري فتاح باشا دور ملموس في تأسيسها ، إذ يشير إلى أنه بعد قيام الحكم الوطني في العراق سنة ١٩٢١ ، (أصبحت الضرورة ملحة لتأسيس غرف التجارة ، وقد صدرت العديد من الدعوات في صحف البلاد المحلية تطالب الحكومة بتأسيس الغرف التجارية ، لذلك سنت الحكومة العراقية ، بعد حصول موافقة مجلس النواب والأعيان ، قانون غرف التجارة ذي الرقم (٤٠) لسنة ١٩٢٦، وبموجب هذا القانون جرت في ٢٨ أيلول ١٩٢٦ انتخابات اللجنة الإدارية لغرفة تجارة بغداد عن طريق الاقتراع السري ، وبنتيجة الانتخابات فاز (١٥) عضواً كان

---

(1) المصدر نفسه ، ص٤.

(2) ينظر في ذلك: فريدة جاسم المندلاوي ، النظرية العالمية في مجتمع متغير ... ص١٥ ؛ علي حسن الفواز، (جعفر أبو التمن .. الاصلاح السياسي والاقتصادي ...) ، ص٦ ؛ أبو الهيل ، أسس قيام الطبقة الوسطى ... ص٣٧.

(3) فريدة المندلاوي ، ص ص١١– ١٥.

مــن بيــنهم نــوري فتــاح ، والــذي حصــل علــى ٢٩ صــوتاً ، ليكــون بــذلك مــن الأعضــاء المؤسسين لغرفة تجارة بغداد. (١)

ســعى نــوري فتــاح باشــا – الصــناعي العراقــي الرائــد- مــن خــلال عضــويته في غرفــة تجــارة بغــداد إلى العمــل مــع بــاقي أعضــاء الغرفــة لتحقيــق الغايــات الــتي حققــت مــن أجلهــا الغرفــة والمتمثلــة في تحقيــق النهــوض الاقتصــادي في الــبلاد ، وحمايــة مصــالح التجــارة والتجــار. فكــان يشــترك في اللجــان الــتي تشــكلها الغرفــة ، ويعــبر عــن آرائــه في المواضــيع الاقتصــادية الــتي تنــاقش ، ويشــترك في المــؤتمرات الاقتصــادية الــتي تعقــد. ففيمــا يتعلــق باللجــان الــتي كانــت لــه مشــاركة في عــدد منهــا ؛ نــذكر علــى ســبيل المثــال أنــه كــان أحــد أعضــاء لجنــة إعــداد نظــام الغرفــة الــداخلي عــام ١٩٢٨ ، وأحــد أعضــاء لجنــة دراســة لائحــة قانون الكمارك عام ١٩٢٨. (٢)*

وخـــلال عـــام ١٩١٢ خطـــت الانتلجنســـيا البغداديـــة الناشـــئة خطـــوة رياديـــة فاعلـــة، مـــن خـــلال تأســـيس (النـــادي الـــوطني العلمـــي) الـــذي دعـــا عـــام ١٩١٣ ، إلى اللامركزيــة ضــمن إطــار الدولــة العثمانيــة .. وبرفعــه شــعار اللامركزيــة فإنــه تمتــع ببريــق منحــه التأييــد المــادي والمعنــوي مــن قبــل عــدد مــن الشخصــيات العراقيــة المتنفــذة ، مثــل يوســف السويدي وعيسى الجميل وعبدالرحمن الكيلاني وطالب النقيب. (٣)

وعــرف النــادي لاســيما أول ظهــوره – بتبنيــه لبرنــامج إصــلاحي مرحلــي، أكــد فيــه علــى الــدعوة إلى تأهيــل أفــراد المجتمــع العراقــي مــن خــلال الاهتمــام بــالتعليم ونشــر العلــم والثقافــة بيــنهم. وكــان مــن بــين أعضــاء النــادي إبــراهيم حلمــي عمــر، الــذي كــان يــدعو بحكــم

(١) صلاح عريبي العبيدي ، (من تاريخ صناعتنا الوطنية في الجيل الماضي) ملحق صحيفة المدى ، السنة العاشرة ، العدد ٢٨٧٥ في ٢٠١٣/٨/٢٦ ، ص١٤.

(٢) العبيدي ، المصدر نفسه ، ص١٤.

*سوف تتم الإشارة إلى الدور المحوري والريادي الذي مارسه (نوري فتاح باشا) في تأسيس صناعة وطنية عراقية في موضع آخر من هذه الدراسة.

(٣) محمد جبار ابراهيم ، ص٤-٥.

تـأثره بالأفكـار الاشـتراكية إلى انقـلاب اجتمـاعي وديمقراطـي للشـعب.. بتـوفير بنيـة صـناعية ومنظومة كهربائية بشكل يسمح بإقامة نظام (اقتصادي متطور).[١]

وكـان النـادي يرنـو إلى الـدفاع عـن الأمـلاك العامـة ، عنـدما قـرر عـام ١٩١٣ ، مقاومـة عـزم الحكومـة علـى بيـع الأراضـي الأميريـة بالمزايـدات ، عـبر دعوتـه لتسـيير مظـاهرات في بغداد.[٢]

وشـهد عـام ١٩١٦ حـدثاً فريـداً ومميـزاً ، وهـو افتتـاح أول شـارع (نظـامي) في بغـداد (الرصـافة) ، ألا وهـو شـارع الرشـيد*، وربـط هـذا الشـارع – لأول مـرة وبشـكل مباشـر وميسَّـر– بـين شمـالي بغـداد (البـاب المعظـم وسـاحة الميـدان) وجنوبيهـا (البـاب الشـرقي). وكـان اسمـه في البدايـة (خليـل باشـا جـاده سـي) ، أي : شـارع خليـل باشـا آخـر والي عثماني على بغداد.وبلغ طول الشارع ٣,١٢٠ كيلومتر، وعرضه ١٢,٥ متر.[٣]

ويعـد افتتـاح هـذا الشـارع – في حينـه– نقلـة نوعيـة علـى طريـق تيسـير عمـل وتنقـل كبـار التجـار والصـيارفة والطبـاعيين والصـحفيين والمـوظفين ، فضـلاً عـن عمـوم المـواطنين .. ذلـك لأن الشـارع يقـع في قلـب بغـداد / التجـاري (أسـواق الشـورجة) ، فضـلاً عن مركزها السياسي حيث مقرات الحكومة ودواوينها.

ومـن الجـدير بالـذكر، أن شـارع الرشـيد عنـد تأسيسـه كـان معتمـاً في الليـل ، إذ لم يـتم توصـيل الكهربـاء إليـه إلا في سـنة ١٩١٧ ، أي بعـد سـنة مـن إنشـائه ، وتم ذلـك على يد العمال الهنود في أيام الاحتلال البريطاني.[٤]

---

(١) المصدر نفسه ، ص٤–٥.

(٢) بتصرف عن المصدر نفسه ، ص ص٤–٥.

*يرى البعض أن أقدم شارع في بغداد هو شارع المستنصر (النهر) ، لكنه في الحقيقة كان (ولم يزل) عبارة عن زقاق طويل (أقل من كيلومتر) ، يمتد من سوق الخفافين وينتهي عند جسر الأحرار. ينظر: رفعت عبدالرزاق محمد ، (شارع الرشيد)، ص١٤.

(٣) فخري حميد القصاب، (شارع الرشيد ، أسماء وتاريخ) ، الصباح ، العدد ٣٢٠٠ في ٢٠١٤/٩/٩ ، ص١٠.

(٤) سعد الفتال (سندرسن باشا وتأسيس الكلية الطبية العراقية) ، المدى ، السنة العاشرة ، العدد ٢٧٥٢ في ٢٠١٣/٣/١٨ ، ملحق ذاكرة عراقية ، ص٨–٩.

وبعد ذلك تتالت عملية افتتاح شوارع حديثة في بغداد ، منها شارع السعدون (١٩٣٢) ، شارع النضال (١٩٣٦) ، شارع الشيخ عمر (١٩٣٦) وهو شارع خاص بالصناعيين ، شارع الخلفاء (الجمهورية) (١٩٥٧) وهو شارع تجاري يخترق قلب بغداد التجاري (الشورجة). [1]

وشهدت هذه المرحلة افتتاح مدرسة لها علاقة مباشرة بتبلور وظهور شرائح البرجوازية التجارية والمالية الحديثة؛ ونعني بها (مدرسة مأموري المالية) ، إذ تعد أول مدرسة منظمة للعلوم المالية ومسك الحسابات يقبل فيها الطلاب الذين تزيد أعمارهم على ١٩ سنة ومن شروطها خضوع المتقدم إليها إلى اختبار بالعربية والحساب والجغرافية والتاريخ ، ويمنح الطالب فيها (روبية واحدة) يومياً بصورة (إكرامية) ، وكانت مدة الدراسة فيها ستة أشهر، وكان الأستاذ داود السعدي أول مدير لها. [2]

نلخص مما تقدم ، إن أرهاصات ظهور وتبلور طبقة بورجوازية بما فيها من شرائح المتعلمين والمثقفين (الأنتلجنسيا) والحرفيين والمهنيين وأصحاب الورش والمصانع قد أخذت وقتاً طويلاً ، استغرق نصف قرن ونيف .. ومع ذلك كان هذا الظهور جنينياً ومحدوداً.

ولم تفصح المرحلة التي سبقت قيام الدولة العراقية الحديثة في عام ١٩٢١، منذ أيام داود باشا ، أو لنقل منذ أيام مدحت باشا ، سوى عن نزر يسير من طاقة الطبقة الوسطى، – وهي الطبقة التي غيَّرت مجرى التاريخ في أوربا وأمريكا واليابان. وعليه كانت المهمة عسيرة أمام المرحلة اللاحقة ، لتنجب رعيلاً رائداً من طبقة التجار والصناعيين والمتعلمين يأخذ على عاتقه قيادة التحديث والتجديد والتنمية في بلدٍ عانى سنين طويلة من التبعية والتخلف بكل أبعاده السياسية والاجتماعية والثقافية والحضارية.

خاتمة:

---

(1) بتصرف عن : رفعت عبدالرزاق محمد ، شارع الرشيد ... ص١٥.

(2) بتصرف عن : عزيز الحجية ، ص٩.

أظهـرت الدراسـة بتواضـع أن العـراق شـهد ولادة مبكـرة لطبقـة بورجوازيـة (صـناعية / تجاريـة / متعلمـة) ، منـذ وقـت مبكـر مـن تاريخـه الحـديث .. وهـو تـاريخ يسـبق قيـام الدولـة العراقيـة عـام ١٩٢١ بعقـود. وهـي عقـود قـد تزيـد علـى عشـرة، إذ احتسـبنا البدايـة مـن عهـد داود باشـا ١٨١٤- ١٨٣١ ؛ أمـا إذا حـددناها مـن أيـام مـدحت باشـا ١٨٦٩- ١٨٧٢ ، فإنها تقـترب مـن نصـف قـرن. وهـذا يعـني أن نشـوء هـذه الطبقـة بكـل مـا تحمـل مـن صـفة تجديديـة وتنويريـة ، باعتبارهـا صـفوة المجتمـع- في حينـه- قـد سـبق قيـام الدولة.

وهنـا يثـار سـؤال حاولـت الدراسـة الإجابـة عليـه ، وهـو: لمـاذا تواصـلت السياسـة [تـوالي الحكومـة الواحـد تلـو الأخـرى ١٩٢١- ٢٠١٥] بكـل إخفاقاتهـا وفشـلها المـزمن ، في حـين تراجـع الاقتصـاد أو انقطـع، متمـثلاً بهـذه الطبقـة الـتي كـان بإمكانهـا تغيـير وجـه العراق– في حال استمرارها وتواصلها!؟ -

أظهـرت الدراسـة أن هنـاك حركـة بورجوازيـة رائـدة في العـراق سـبقت حـتى عصـر داود باشـا ، وهـي حركـة كـان بإمكانهـا الاسـتمرار والنمـو ، لاسـيما وأنهـا اسـتندت علـى شـرائح نالـت حظـاً مـن العلـم والمعرفـة بقياسـات ذلـك العصـر، وعلـى وجاهـات وعـائلات أثبتـت اسـتيعابها لحركـة التحـول الاقتصـادي في العـالم الـذي أبـدل اقتصـاد الكفـاف والمقايضـة إلى اقتصـاد حـديث قـائم علـى التبـادل النقـدي والتعامـل عـبر الحـدود والفواصـل الدولية.

وتطلبـت الإجابـة منـا ، التجـوال عـبر المحطـات الـتي مـرت بهـا هـذه الطبقـة ، بمـا حملتـه (هـذه المحطـات) مـن قـوة دفـع أفضـت إلى الأمـام ، أو قـوة قطـع أودت إلى التراجـع أو التوقف عن الحركة ! وعليه استغرقت عملية المرور ثلاث دراسات ، هذه أولها.

ننتهـي الى القـول ، أن علينـا اليـوم أن نراجـع تاريخنـا الاجتمـاعي والاقتصـادي ، وأن نقـف عنـد أسـباب تراجـع مجتمعنـا عـن ارتقـاء سُـلَّم التطـور والحضـارة ، في وقـت كانـت بـدايتنا صـحيحة وواعـدة ، علـى يـد رواد ، كـان يحـدوهم الأمـل في صـنع غـدٍ عراقـي جميـل، لكـن أضـاعه الأحفـاد في متاهـات، قـد تكـون السياسـة علـى رأسـها، أو قـد يكـون الـنفط

مـن بينهـا. ولكـن علينـا أن نفـتش عـن أسـباب أخـرى في داخـل أنفسـنا ، فلعلنـا نجـد الأسباب ! أو على الأقل بعضاً من هذه الأسباب.

middle class in Iraq between early starting off and late floping

Abdulsalam Ibraheem Dawood Baghdadi

This study discussed basic subject in the modern and current economic , social ,political history of iraq . this subject is the emergence of middle class -Bourgeoisie - with it is industrial , commercial winges and its intellectual elites . our study depended on historical ,social comparative approach , to prove its hypothesis .this hypothsis says , iraqi Bourgeoisie has deep rootes in the history to re sort to beginning of nineteenth century .but this class growed and developed step by step and slowly , because local and foreign political variables .the study referd to the role of som pioneer political and social personalities in this field , and some socialite notables . also , this study refered to the role of some pathfinder establishmentes in this field.